﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأعراف: 164]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الشروعُ في تفصيل طوائف أهل القرية

هذه الآية من قصّة القرية حاضرة البحر معطوفةٌ على الآيات الّتي سبقتها عَطْفَ القصّةِ على القصّة، وهي تمثّل جانبًا من الأحداث الّتي جرت مع أصحاب القرية وانقسامهم إلى فِرَقٍ مختلفةٍ، لذا قال المفسّرون عن هذه الآية إنّها معطوفة على قوله ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ [الأعراف: 163][1]، وفيها بيانُ طوائفِ هذه القرية وحالِ كلِّ طائفة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٌ﴾: أصلها (أمّ)، والأُمّة: كلُّ قوم في دينهم من أُمّتهم، وكلُّ من كان على دينٍ واحدٍ مخالفاً لسائر الأديان فهو أمّة على حدةٍ، والأُمَّة: كُلُّ جَماعَةٍ يَجمَعُهُم أَمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا[2]. وتُطلَقُ الأُمَّةُ على عالِمٍ دَهْرِهِ المُنفَرِدِ بِعِلمِهِ، وكان إبراهيم عليه السلام أمّة[3]. ومِن مَعانيها: الشِّرْعَةُ والدّينُ، يُقالُ: فُلانٌ لا أُمَّةَ له، أيْ: لا دينَ لَهُ، وكذلك كُلُّ مَن كان على دينٍ حقٍّ مُخالِفٍ لِسائِرِ الأديانِ فهو أمَّة، ويُقال لِكُلِّ جيلٍ مِنَ النّاسِ والحَيوانِ: أُمَّةٌ. والجَمعُ: أُمَمٌ[4]. والمعنى في الآية: جماعة منهم.

2) ﴿تَعِظُونَ﴾: العِظَةُ: الموعظة. وأَصْلُه: التَّخْويفُ والإنْذارُ، وَعَظْتُ الرّجلَ أَعِظُهُ عِظَةً وموعظة: واتَّعَظَ: تقبّل العِظَةَ، وهو

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 161/2.
(2) الرّاغب، المفردات: (أمم).
(3) الخليل، العين: (أمم).
(4) ابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية: (أمم).

تذكيرُك إيّاه الخيرَ ونحوَه ممّا يرقُّ له قلبُهُ. ومن أمثالِهم المعروفة: لا تَعِظيني وتَعَظْعَظي، أي: اتَّعِظي أنتِ ودَعي موعظتي[1]، والواعِظُ: النَّذيرُ، ومِن مَعانيه أيضًا: النُّصْحُ والإرْشادُ والتَّحْذير[2]. وعرّفه الراغبُ بأنّه: زجرٌ مقترِنٌ بتخويفٍ[3].

3) ﴿مَعْذِرَةً﴾: قال الفراهيدي: عذر: عَذَرْتُه عَذْراً ومَعْذِرَةً. وأَصْل العُذْرِ: إزالَةُ الشَّيْءِ عن جِهَتِه، والعُذْرُ اسمٌ، عذرتُه بما صنع عَذْراً ومَعْذِرة وعَذَرْتُه من فلانٍ، أي: لُمْتُ فلاناً ولم أَلُمْهُ[4]. والعُذْرُ: تحرّي الإنسانِ ما يمحو به ذنوبَه، العُذْرُ: الحُجَّةُ التي يُعْتَذَرُ بها، وكُلُّ ما يَرْفَعُ اللَّوْمَ فهو عُذْرٌ، يُقال: اعْتَذَرَ عن فِعْلِه، أيْ: أَظْهَرَ عُذْرَهُ. والمعذرة الاسم، ولي في هذا الأَمْرِ عُذْرٌ، أيْ: خُروجٌ مِن الذَّنْبِ. والجَمْعُ: أعْذارٌ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ حالِ فِرْقَةِ اللّائمينَ للنّاصِحينَ ليأْسِها من صلاحِ المعتدينَ في السبتِ

واذكُر أيها الرسول ﷺ حين قالت جماعةٌ مِن أهلِ تلك القريةِ الّتي اعتَدَتْ يومَ السّبت؛ للآمرينَ بالمعروف والنّاهينَ لهم عن هذا المنكَر: لمَ تزجرون أولئكَ المعتدينَ، اللّهُ مُهْلِكُهم في الدنيا بمعصيتهم إياه، أو معذِّبُهم عذابًا شديدًا في الآخرة؟ فأجابوهم: نفعلُ ذلك مَعذِرةً إلى رَبِّكم في قيامنا بركنِ الأمرِ بالمعروف والنّهي عن المنكر، عَلَّهُم يعودون عن عَدْوِهم ويتّقون اللّه تعالى في أمرهم، فيخافونه، ويتوبون من معصيتِهم ربَّهم وتعدّيهم على ما حرَّم عليهم.

(1) الخليل، العين: (وعظ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (وعظ).
(3) الرّاغب، المفردات: (وعظ).
(4) الخليل، العين: (عذر).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عذر).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ في الآية ومحلُّه:

عطف القصّة على القصّة لدخولها في حكمها

الواو عاطفة، والظرف في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ [الأعراف: 163] داخلٌ في حكمه؛ أي: واسألْهُم يا رسول الله عن حال أهل تلك القرية، حين قالت جماعة منهم؛ لأقوام آخرين من الصُّلحاء الذين لم يُقْلِعوا عن وعظِ الصيادين، ولم يتركوه رجاءً للنَّفْعِ، وطَمعًا في فائدة الإنذار: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾؛ أي: لم تستمرون في وعظ قوم ﴿ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾؛ أي: مخزيهم في الدنيا بعذاب الاستئصال ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ موجعًا؛ لعدم إقلاعهم عما كانوا عليه من الفسق والاصطياد[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بـ(إذ) في القصّة ودلالاتُها وإعرابها:

تصويرُ المشاهد القصصيّة واستحضارُها أمام القارئ

إذ: اسمٌ أو ظرفٌ للزمان للماضي، وتُعْرَبُ على أنّها مفعولٌ فيه مبني على السكون في محلِّ نصبٍ، أو مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذْكُر، ويَكثُر ورودُها في القَصص القرآنيِّ؛ لأنَّ أغلب ما يأتي بعدها هو مَشاهدُ قَصصيّةٌ يُراد للسامع أن يستحضرها مَشاهدَ حيّةً تجري أمامه، لذلك توالت هنا عدَّة مرّات في سياق تذكير بني إسرائيل بصنائع أجدادهم السابقين، وتاريخهم الطويل في التمرُّد والعصيان. وفائدتُها ظاهرةٌ في تصوير المشاهد الفنّيّة على أنّها مشاهدُ حيّةٌ يراها القارىء أمامه من خلال هذه الحروف والألفاظ الّتي أَخذتْ على عاتقها تصويرَ هذه المشاهد.

فائدة تنكير لفظ ﴿أُمَّةٌ﴾:

التقليل أو التحقير؛ إذ تعطيل عمل المصلحين في المجتمع مذمومٌ في شرع الله

تنكيرُ ﴿أُمَّةٌ﴾ هنا قد يفيد التّقليلَ على اعتبار أنَّ هذه الفئةَ الأصلُ فيها أن تكون قليلةً في المجتمع؛ حتّى لا يتعطّل الركنُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 196/10.

الأكبر والقطبُ الأعظم وهو الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. أو التّحقير على اعتبار أنّها فئة مذمومة مرذولة لتعطيلها دورَ المصلحين في المجتمع.

معنى (من) في ﴿مِّنْهُمْ﴾ وعود الضمير فيها:

المثبّطون لعملِ المصلحين هم فئةٌ من المجتمعات ولا يمثّلون حالَ الجميع

(من) هنا للتبعيض؛ لأنَّ من قام بهذا جماعة منهم وليس جميعَهم، والضمير في ﴿مِّنْهُمْ﴾ عند ابن عاشور عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ [الأعراف: 163]، وليس عائدًا إلى أهل القرية؛ لأنَّ المقصود توبيخُ بني إسرائيل كلِّهم، فإن كان هذا القول حصل في تلك القرية كما ذكره المفسرون كان غيرَ منظور إلى حصوله في تلك القرية، بل منظورًا إليه بأنَّه مظهرٌ آخر من مظاهر عصيانهم وعتوِّهم وقلَّة جدوى الموعظة فيهم، وأنَّ ذلك شأن معلوم منهم عند علمائهم وصلحائهم، ولذلك لمّا عُطفت هذه القصة أُعيد معها لفظُ اسمِ الزَّمان فقيل: وإذ قالت أمَّة، ولم يقل: وقالت أمَّة[1].

معنى اللّام و(ما) في ﴿لِمَ﴾:

اللّام في ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ للتَّعليل[2]، و(ما) اسم استفهام، حُذفتْ ألفُه لدخول حرف الجر عليه، والمستفهَم عنه من نوع العِلَل.

بلاغةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ وغَرَضُه:

الاستفهامُ الإنكاريُّ دلَّ هنا على معاني التّعجيب والتيئيس

في قوله ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ الاستفهام إنكاريّ تعجيبيّ، ويمكن حملهُ على التَّيئيس من استجابة القوم، فعندئذٍ يَحملُ هذا الاستفهام في جوانحه معانيَ التَّهكُّم والسُّخرية، فالاستفهام إنكاريٌّ في معنى النّفي، فيدلُّ على انتفاء جميع العِلَلِ الّتي من شأنها أن يوعَظَ لتحصيلها، وذلك يُفضي إلى اليأس من حصول اتّعاظهم[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 150/9 - 151.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 151/9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 151/9.

دلالاتُ التّعبير بـ﴿تَعِظُونَ﴾:

توجيهُ المذنبينَ والعصاةِ وإرشادُهم ينبغي أن يكون مستمرًّا لاينقطعُ

المعنى المحوريُّ لمادّة (وعظ) تقوم على كلامٍ أو عملٍ يُنَبَّه به الإنسانُ إلى عواقب ما يفعله أو ما هو مُقْدِمٌ عليه ليتوقَّفَ عنه، وقَيْدُ التَّوقُّفِ يُؤخَذُ من التَّذكير بالعواقب. وكأنَّ الأصل في معنى التَّركيب أنّه خاصٌّ بالزّجر عمّا له عواقبُ سيِّئةٌ فحسب، ثم عُمِّم في الحضِّ على ما له ثواب[1]. وتبيّن من المعنى الاصطلاحيِّ للوعظ أنّه يقوم على الأمر بفعل الخير وتركِ الشَّر بطريقةٍ فيها تخويفٌ وترقيقٌ يَحمِلان على الامتثال، وعلى هذا كان التّعبير بهذه اللّفظة في هذا الموضع على لسان المثبِّطين للآمرين بالمعروف والنّاهين عن المنكر هو الأنسبُ، ودلَّ التّعبيرُ بالمضارع على تجدُّدِ واستمرارِ هذه الفريضة عند القائمين بها، وأنّهم يقومون بهذا الأمر والنّهي في كلِّ ما تسنَّى لهم من الأوقات.

نكتة تنكير ﴿قَوْمًا﴾:

أفاد التّنكير معاني التّكثير والتّحقير

تنكير لفظة ﴿قَوْمًا﴾ أفاد معنى التّكثير لهذه الفئة المُعتدية، كما يُفهم من قوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾، فأَسنَدَ العدوانَ لأهل القرية جميعًا تجوُّزًا لكثرتهم كما يبدو، ثمّ إنَّ تاريخَ بني إسرائيل الطويلَ المليءَ بالمعاصي مع أنبيائهم يساعد على معنى التّكثير. كما يفيد التّنكيرُ أيضًا معنى التَّحقير، كما يدلُّ عليه مقامُ اقترافِهم للاعتداء في اليوم المعظَّمِ عند اليهود، وهو السّبت.

غرضُ مجيء أوصاف الإهلاك أو العذاب:

تحقّقُ وعيدِ اللهِ على المعتدينَ

يقول ابن عاشور: "ووصْفُ القوم بأنَّ الله مُهْلِكُهم: مبنيٌّ على أنَّهم تحقَّقت فيهم الحال الَّتي أخبرَ الله بأنَّه يُهلِكُ أو يعذِّبُ مَن تحقَّقتْ فيه، وقد أَيقنَ القائلون بأنَّها قد تحقَّقت فيهم، وأيقنَ المقولُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وعظ).

لهم بذلك؛ حتَّى جاز أن يصفَهم القائلون للمُخاطَبين بهذا الوصف الكاشف لهم بأنَّهم موصوفون بالمصير إلى أحدِ الوعيدَيْن[1]".

نُكتةُ التّعبيرِ باسم الفاعلِ:

التيقّن من إهلاك الله تعالى للظالمين

يدلُّ التّعبير باسم الفاعل في ﴿مُهۡلِكُهُمۡ﴾ و﴿مُعَذِّبُهُمۡ﴾ على الاستقبال من ناحيَةٍ، ويدلُّ على تمكُّن الفعل بصاحبِه حتّى باتَ اسمًا له من ناحيةٍ أخرى، يقول أبو السعود: "وإيثارُ صيغةِ اسمِ الفاعل مع أنَّ كلًّا من الإهلاك والتَّعذيب مترقَّبٌ؛ للدَّلالة على تحقُّقِهما وتقرُّرِهما البتَّةَ كأنَّهما واقعانِ، وإنَّما قالوه مُبالغةً في أنَّ الوعظَ لايَنْجَعُ فيهم، أو ترهيباً للقوم، أو سؤالاً عن حكمة الوعظِ ونفعِه، ولعلهم إنَّما قالوه بمحضَرٍ من القوم؛ حثًّا لهم على الاتِّعاظ، فإنَّ بتَّ القولِ بهلاكهم وعذابهم بما يُلقي في قلوبهم الخوفَ والخشية[2]".

غرضُ ذكرِ لفظِ الجلالة في وصْفِ (القوم):

ذِكْرُ اسم الجلالة يفيد هنا تربيةَ المَهابَةِ وتوكيدَ الحُكْمِ

ذِكْرُ لفظِ الجلالة في قوله تعالى: ﴿قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ﴾ من شأنه أن يولِّدَ في النّفس تربية للمَهابةِ، ولا سيِّما وأنَّ خبره هنا اسم فاعل، فأفاد ذلك مزيدًا من التّخصيص أو التّقرير في وقوع الهلاك أو العذاب فيهم لا مَحالة.

بلاغةُ مجيءِ الأوصافِ بالجُمَل الاسميّةِ التي أخبارُها أوصافٌ مشتقَّة:

أفادت أسماءُ الفاعل الخبريّة معانيَ التّخصيص

من المقرّر في علم المعاني أنَّ الخبر الفعليَّ يُفيد تقويةَ الحكم وتوكيدَه، وقد يُفيد التّخصيصَ بالقرائن، ولا مانع هنا من حمْلِه على التّخصيص على معنى أنَّ الله وحده تعالى هو من يتولّى – دون غيره – إهلاكَهم في الدنيا أو عذابَهم في الآخرة، والقرينةُ الدافعةُ للتّخصيص أنّه جاء على لسان المثبِّطين للدعاة في دعوتهم، فكأنّهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 151/9.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 44/3 - 45.

يقولون لهم: دَعُوكُم من بذل الجُهْدِ في سبيل ردِّهم عن الباطل؛ فاللّهُ وحده هو من يتولّى جزاءهم في الدّارَيْن دون غيره.

نُكتةُ التّعبير عن القوم بالضمائر:

الإضـمـارُ بعد الإظهارِ بابٌ من بلاغة الإيجاز

الضمائر في قوله تَعالى: ﴿مُهْلِكُهُمْ﴾ و﴿مُعَذِّبُهُمْ﴾ و﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ تعود على الفئة الباغية الّتي اعتَدَتْ في السّبت، وعدَلَ القرآن عن التّصريح بذِكْرِهم إيجازًا؛ لأنّه تقدّم ذكرُهم من ناحية، وإمّا لأنّه جاء على لسان هذه الفئة التي وقفت تتفرّج دون أن تحاول تغيير المنكر، بل إنّها قامت بدورٍ سلبيٍّ أكبر من خلال معاتبةِ الفئةِ المنكِرةِ لهذا الفعل، فيمكن أن يكون هذا الإضمار ناشئًا عن خوفهم من التّصريح باسمهم أو وَصْفِهِم، أو يكون ناشئًا عن تحقيرهم لهم بحيث إنّهم لا يستحقّون أن يُذكَروا باسْمِهِم.

نكتةُ تقديمِ الإهلاك على العذاب:

تقديمُ العقوبةِ الأشدِّ أو المقدَّمةِ في الزَّمنِ له أثرُه في توهين عزيمةِ الواعِظينَ

تقديمُ الإهلاكِ على التَّعذيبِ في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ من باب تقديم الأشدِّ، وهو المصيرُ الذي يستحقُّه مَن يرتكبُ هذه المعصيةَ؛ فالإهلاكُ أشدُّ من عذابهم في الدّنيا، وربّما يكون سببُ التّقديم له من باب التأخّر الزمني لعذاب الآخرة عن إهلاك الدّنيا، وربّما لأنّه جاء على لسان هذه الفئة المثبِّطة للفئة الآمرة بالمعروف والنّاهية عن المنكر، فقدَّموا ذِكْرَ المصيرِ الأشنعِ الذي يمكن أن ينتظرَهم على معصيتِهم حتّى يكونَ هذا أقوى في توهين همّة هذه الفئة المنكِرة؛ فَطالَما أنَّ الله قادرٌ على إهلاكِهم فما نَفْعُ دعوتِهم ونُصْحِهم!!.

أفـادت (أو) الـتّـنـويـعَ في وقـوع إحـدى العـقـوبـتين أو اجـتـمـاعـهـمـا عليهم

معنى ﴿أَوْ﴾ ودلالتُها:

﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ ليست للإضراب، بل هي عاطفةٌ تفيد التّنويعَ، على معنى: إمّا مُهلِكُهم بالاستئصال أو بعذابٍ شديدٍ دون الاستئصال، أو مُهلكُهم في الدُّنيا ومعذِّبُهم في

الآخرة؛ وأيًّا ما كان المراد في ﴿أَوْ﴾ هنا هي المانعة للخلوِّ من وقوع أحدِ الجزاءَيْن، لا المانعة لجمعهما، فهي لا تنفي اجتماعهما[1].

دلالةُ عطفِ ﴿مُعَذِّبُهُمْ﴾ على ﴿مُهْلِكُهُمْ﴾:

عطفُ الأقل على الأشدِّ، أو رُوعِيَ في العطف الترتيبُ الزَّمنيُّ

أفاد عطفُ العذابِ على الإهلاك في قوله: ﴿مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ عَطْفَ العقوبة الأقلّ على الأشدّ، وإن كان كلاهما شديدًا، لأنّه أكّد أنّ هذا العذاب شديدٌ، أو رُوعِيَ في العطف الترتيبُ الزمنيُّ من حيثُ ظرفُ العقوبةِ في الدنيا أو في الآخرة، ولكن لن يخلو الأمر من حصول أحد الأمرين أو كليهما معًا، وفي هذا دعوةٌ للواعظين للتوقّف عن وعْظِهم بسبب توقّع حصولهما.

غرضُ تأكيد العذاب بالمفعول المطلق ووصفه بالشدّة دون الإهلاك:

الذَّنْبُ العظيمُ يستوجب عذابًا أليمًا

النّظم الكريم قال: ﴿مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فأكّد العذاب بالمفعول المطلق ﴿عَذَابًا﴾ ووَصَفَه بالشدّة، بخلاف الإهلاك فلم يأتِ معه هذه المؤكِّدات، وربّما كان ذلك لأنّ العذاب إن كان دنيويًّا فهو متفاوتٌ في اللّين والشدّة بحسب المُعَذِّب أو نوع الذَّنْب، فأرادوا أن يؤكِّدوا للنّاصحين لهم أنّهم يعرفون أنّ ذنْبَ المعتدين كبيرٌ جدًّا ولكنّهم يعرفون أنّ عذاب الله شديدٌ جدًّا. وقد يكون لأنّ الإهلاك يقع مرّة واحدة ويموت مستحقّوه، بينما العذاب الأخرويّ فهو دائم وشديد، وفي هذا وعيدٌ ما بعده وعيدٌ، وتعريضٌ بهم بأنّ ما أصابهم في الدّنيا ليس بشيء إزاءَ ما ينتظرهم في الآخرة؛ فإنَّ نجاتكم من الإهلاك لا تعني أنّ ما يأتي بعده أيسرُ منه!

الموقعُ البيانيُّ لقوله: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً﴾:

ترك العطف يقع كثيرًا في أسلوب المحاورات

الجملةُ غيرُ معطوفةٍ على ما تقدَّمها، وهذا التَّركُ للعطف يقع كثيرًا في أثناء أسلوب المحاورات[2]، وعطْفُها على الكلام السابق

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 376/9.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 152/9.

سيوهِمُ أنّه من بقيّة كلام الفئة المثبِّطة، والأمرُ ليس كذلك، والمعنى: إنَّما نَعِظُهم لنُعْذَرَ عند الله تعالى، بقيامِنا بواجب الوعظ والإرشاد.

بلاغةُ المتشابِه اللّفظيّ في وصف العذاب:

التَّغايرُ في ذكر أوصاف العذاب لتتلاءم مع السياق الذي جاءت فيه

وردت مادّة (عذب) ومشتقّاتها في القرآن الكريم ما يزيد على (370) مرّة، وجاء هذا العذاب موصوفًا بصفات كثيرة بعضها أكثر ورودًا من بعض، ومن هذه الصفات: العذاب العظيم، الأليم، الشَّديد، المهين، القريب، المقيم، النُّكر، وغيرُها، ومن حيث المبدأ يمكن أن نَقول: إنَّ كلَّ صفة من هذه الصفات تُغايرُ أختَها، فلا ترادُفَ بينها ألبتّة، ولا تَسدُّ صفةٌ منها مَسَدَّ أختِها، وليس التغايرُ في ذكرها تلوينًا في الخطاب، ولا افتنانًا في الكلام، إنّما تأتي كلُّ صفة منها متلائمةً مع السياق الذي جاءت:

فمثلًا جاء وصف العذاب بأنّه (مُهين) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: 57] في سياق الحديث عمّن اجترؤوا فيه على الله ورسوله، فَظنُّوا أنّهم من العظمة والكِبْر بحيث يَقدرون على فَعلَتِهم هذه، فجاء العذابُ من جنس العمل، ووُصِفَ بأنّه عذابٌ مُهينٌ؛ لينزعَ عنهم كلَّ ذرّة من كِبْر وخُيَلاء.

وجاء وصفُ العذابِ بالعِظَم في مواضع استوجَبتْ ذلك من مِثْل قوله تعالى في شأن قصّة الإفك حول أمّ المؤمنين عائشةَ ﵂: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: 14 - 16].

فالبُهتانُ العظيم شأنُه عند الله عظيمٌ، لذا استوجَبَ هذا العذابَ.

وجاء وَصْفُه بالشدّة في سياقاتٍ استوجبتْ هذا الوصفَ من مِثْلِ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ [الشورى: 16].

فمِثْلُ هذه المحاجَّةِ بعد أن استُجيبَ له تستوجبُ عذابًا يوسَمُ بالشدّة، وفي آية الأعراف هنا استوجب العذاب وصفه بالشدّة؛ لأنّهم جمعوا بين الاعتداء في يوم السبت على حرمات الله، حيث أمرهم أن يعظّموا يوم السبت ولا يصيدوا فيه سمكًا، وبين الاحتيال على حبس السَّمك في يوم السبت في حفائرَ، ويصطادونها بعده، وضَمُّوا إلى ذلك عدمَ الاستجابة للوعظ.

وكذلك الحال في وصْفه بـ(أليم) من مِثْلِ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النحل: 116 - 117]، فإنّك مهما تأملت وصفًا للعذاب يفوق كونه أليمًا لهذه المواضع فلن تجد.

وكذلك الحال في وصفه بالقرب كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ: 38 - 40] فالتّذكير بمشاهدِ الآخرةِ في سياق إبراز النّدم على ما فات من الأعمال في يوم لا ينفع فيه مثل هذا النّدم - يناسبه وَصْفُ العذاب بالقُرْب؛ لتنزجرَ النّفوس ولا تغترَّ بالمتاع سريع الانقضاء.

تتكامل القراءتان المتواترتان في إبراز حرص الفئة الواعظة على نصح الفئة المعتديّة

التّوجيه البلاغيّ والنّحويّ للقراءات المتواترة في ﴿مَعْذِرَةً﴾:

في قوله: ﴿مَعْذِرَةً﴾، قراءتان: القراءة الأولى: قرأ حفصٌ وحدَه بالنّصب ﴿مَعْذِرَةً﴾. القراءة الثّانية: قرأ الباقون بالرفع (مَعذِرَةٌ)[1]،

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 296، وابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 166، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 1/272.

والتّوجيه النَّحْويّ للوجه الأوّل بالنَّصب على المصدر، إذ يفيد معنى التّوكيد كأنّهم يقولون: نعظهم اعتذارًا، ويجوز كونها مفعولًا لأجله، أي نعظهم لأجل الإعذار وإقامة الحجّة.

وتوجيه قراءة الرّفع على أنَّه خبر لمبتدأ محذوف دلَّ عليه الكلام مثل قولهم: موعظتُنا معذرةٌ لهم[1].

بلاغة التّعبير بـ﴿مَعْذِرَةً﴾:

بـذلَ الـوعّـاظ جُـهْـدَهـم واسـتـفـرغـوا وُسْـعَـهـم في نُصح قومهم

ورد في أصل مادّة (عذر) قولهم: اعتذر الرجل وتَعَذّر نَشَأ له ما يعوقه عن عمل ما واقعًا ثم إخبارًا، وكذلك يقال: أعذر: ثَبَتَ له عذر، وأحْدَثَ عُذْرًا، وأَبْدَى عذرًا، وكَثُرت ذنوبه وعيوبه[2]، والمعذرة مصدر ميمي للفعل (اعتذر) على(مَفْعَلة)، وأُقيم مقام الاعتذار، والمصدر الميمي في دلالته على الحدث أقوى من دلالة المصدر العام، فالتعبيرُ بالمصدرِ الميمي يصوِّرُ المعنى المصدري واقعًا قائمًا متحقِّقًا في الوجود، أما المصدرُ الصريحُ فيصوِّرُ الحدثَ مجردًا عن الواقع، والتّعبير بالمصدر المؤوَّل يدلُّ على شدّة رغبتهم في استفراغ الوُسْعِ في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

نُكتةُ التّعبير بالربوبيّة وإضافته إليهم:

الإضـافـة إلى لفظ الربوبيّة فيها تشريف للمضافين وقد يكون فيها نوعٌ من التّعريض

في ذكر كلمة الربّ تسريةٌ وتسليةٌ على لسان المصلحين؛ إذ من شأن الربِّ أن يرعى عباده وأن يُصلِحَهم، وأنّه يستحقُّ منكم أن تقوموا بما يُصلِحُ حالَ قومِكم، وفي إضافة الربِّ إلى ضمير المخاطَبين تشريفٌ لهم، وتعريضٌ بهذه الفئة المثبِّطة على عدمِ قيامهم بواجب الوعظ مثلهم، ونكوصِهم عن قيامهم بركن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر[3].

(1) قمحاويّ، طلائع البشر في توجيه القراءات العشر، ص: 79.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عذر).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 45/3.

غرضُ تعدية المعذرة بـ(إلى):

بلاغة التّضمين تكمن في الجمع بين قوّة المُضمَّن والمضمَّن فيه

تتعدّى المعذرة بـ(إلى) في العادة ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 94]، لكنَّ الآلوسيَّ يرى أنّ المعذرة تعدّت هنا بـ(إلى) لتضمُّنِ المعذرة معنى الإنهاء والإبلاغ[1]، والتّضمين أقوى من القول بتناوب الحروف في أنّه يجمع قوّة الفعلَيْن أو الاسمَيْن المُضمَّنَيْن، فالمُراد: فعلنا ما فعلنا معذرةً تبلغُ بنا إلى ربّكم.

بلاغةُ الإيجاز في التّعبير عن انقسام أهل القرية إلى ثلاثِ فِرَقٍ:

صوّرت ألفاظُ الآيةِ القليلةُ بضربٍ من الإيجاز انقسامَ أهل القرية إلى فِرَقٍ ثلاث

أوجزتِ الآيةُ أحوالَ أهلِ تلك القرية وأنّهم انقسموا إلى ثلاث فرقٍ: فرقة العادين الّذين اعتَدَوْا في السّبت، المتجاوزين حدودَ اللّه عن تعمُّد وإصرار، وفرقة الواعظين الّذين أمروا بالمعروف ونَهوا عن المنكر، الناصحين لهم بالانتهاء عن تعدِّيهم وفسوقِهم، وفرقة المثبِّطين اللائمين للناصحين ليَأْسِهم من صلاح العادين في السبت، الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ وبيّنت بألفاظها القليلة حال تلك الفرق الثلاث، وهذا ضربٌ من الإيجاز عظيم.

نُكتةُ العطفِ ودلالاتُه في ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾:

الجمع بين النّفع الدنيويّ والأُخرويّ، وبين رضا الخالق ونَفْعِ المخلوق

ذكر الواعظون العلّة الثانية التي جعلتهم يُنكرون على الفئة المعتديّة، فكانت العلّة الأولى تقوم على الإعذار إلى اللّه من خلال تطبيق فَرْضِيّته في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والعلّة الثانية تتعلّق بالمدعوِّين من قومهم خوفًا عليهم ورفقًا بحالهم؛ رجاءَ أن يكونوا من المتّقين، وبذلك يكونون قد جمعوا بين ثمرة العملَيْن: الدنيويِّ والأخرويِّ، وجمعوا بين الركنَيْن الماديّ والمعنويّ في الدعوة، من منع قومهم من الاستمرار في المعصية، ومن إرضاء اللّه تعالى،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 392/15، والآلوسيّ، روح المعاني: 86/5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 151/9.

وجمعوا كذلك بين رضا الخالق والحرص على المخلوق، فكان هذا العطف بين العلَّتَيْن محقِّقًا لهذا كلّه.

فائدةُ العُدولِ في قراءة ﴿مَعۡذِرَةً﴾ بالنّصب:

العدولُ عن الظّاهر ضربٌ بلاغيّ له مسوِّغاتُه البيانيّةُ والنّفسيّةُ

على قراءة النّصب لـ ﴿مَعۡذِرَةً﴾ يقع هنالك عدولٌ حيث تكون الجملة: ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ فعليّة قد عُطف عليها جملةٌ اسميّة، وهي قولهم: ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾، وفائدة العدول حينئذٍ من الفعليّة إلى الاسميّة الإشارة إلى رغبتهم الدائمة باتّقاء قومهم والحرص عليهم، ويكون خبر هذه الجملة الاسميّة ﴿يَتَّقُونَ﴾؛ للإشعار بضرورة اتّقائهم في كلِّ حين.

وهناك نوعٌ آخر من العُدول في نظم الجملتيْن السابقتيْن، ففي الجملة الأولى كان الكلام موجَّهًا لضمير المخاطَب، وهم الفئة المثبِّطة، وفي الجملة الثّانية إلى ضمير الغَيْبة العائد على المعتدين، وفائدةُ هذا العدول في الضمائر التّعريضُ بالمخاطَبين في قول الواعظين لهم: ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾، أي: ينبغي أن تفعلوا فِعلَنا وأن تحذوا حَذْوَنا، وفي العلّة الثانية المعطوفة عاد ضمير الغَيْبة إلى المعتدين؛ لأنّهم ليسوا حاضرين في هذا المشهد الحواريّ، فكان الأليقُ بهذا المقام وقوع هذه الضمائر على ما وقعت عليه.

نُكْتَة مجيء حرفِ الرَّجاء (لعلّ):

المصلحون يرجون دائمًا هداية أقوامهم

مجيء حرف الرَّجاء (لعل) في الجملة الكريمة يدلُّ على رغبة الواعظين بهداية قومهم وتمنّيهم له، وأنّهم لم يقطعوا الرّجاء بعدُ في هدايتهم وانصرافهم عن عدوانهم، فحرف(لعل) يدلُّ على الرّجاء في أصله. وقد يُستعمل في التمنّي كما هو مقرّرٌ في علم المعاني؛ لإبراز المُتمنَّى بصورة الأمر صعب الوقوع أو محاله، كقول فرعون: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: 36 - 37] وحملها هنا على

الرجاء أولى لأنّها مُشعرة بأنَّهم يرون أنَّ الرَّجاء لم ينقطع بعدُ، بل ما زال بعض رجاء باستجابة بعضهم، وأنَّ العُصاة لم يَصِلوا من وجهة نظرهم إلى مرحلة اليأس الكامل.

بلاغة التّعبير بـ﴿يَتَّقُونَ﴾:

محور الكلمة يدلُّ على الحفظ، ومضارعها دلَّ على التجدّد الاستمراريّ

المعنى المحوري الذي تقوم عليه مادّة (وقي) يقوم على حفظٍ من الأذى أو الضرر باتخاذ حاجز دونه[1]، والتّعبير بالمضارع هنا يدلُّ على ضرورة استمرار عمليّة الاتّقاء عند كلِّ طارىء ومُنْعَطَفٍ يمرّون به في حياتهم.

نكتة حذف مفعول التّقوى:

حذف المفعول هنا للتّعميم

يمكن أن يكون تقدير الكلام هنا: لعلّهم يتّقون محارمَ الله من الاعتداء في السبت أو غيره، ويمكن أن يكون التّقدير: يتّقون غضبَ الله من خلال اجتناب موجباته، أو يتّقون عذابَه أو هلاكَه، فحذفُ المفعول للتّعميم هنا هو الأولى؛ ليشمل هذا كلّه، إذ لا تعارض بينه كلّه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العظة والنّصيحة والوصيّة:

النّصيحة تعمُّ العِظَةَ والوصيّةَ؛ فالعِظَةُ زجر المقترن بوعد أو وعيد، والوصيّة نصيحة مؤكّدة

تقدَّم في شرح المفردات أنَّ العظة: هي الزّجر المقترن بالتّخويف، أو التّذكير بالخير فيما يرقّق القلوب، والنّصح هو تحرّي فعلٍ أو قولٍ فيه صلاحُ صاحبه، وهو من قولهم: نَصَحْتُ له الودَّ أي أخلَصْتُهُ، وناصِحُ العسل خالصُه، والنّاصحُ الخيّاط، فأصل النّصيحة من الإخلاص أو الإحكام[2]، وقد ذكر القرآن الكريم على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود: 34] فالموعظةُ نصيحةٌ،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقي).
(2) الرّاغب، المفردات: (نصح).

ولكنّها تحوي ترغيبًا أو ترهيبًا، فكلُّ موعظة نصيحة، وليست كلّ نصيحةٍ موعظةً، فالنّصيحة أعمّ والموعظة أخصّ.

وأمّا الوصيّة فهي التقدُّم إلى الغير بما يعمَلُ به مقترنًا بوعظٍ[1]، ويظهر من الاستعمال القرآنيّ لـ(وصّى) و(أوصى) أنّها تأتي بمعنى النّصيحة المؤكّدة قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: 132] وقال: ﴿*شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى: 13].

(1) الرّاغب، المفردات: (وصى).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 15 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-11-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 15 : المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26.
-1القرآن - تفاسير نحوية -2 القرآن، بديع -3 القرآن، بلاغة -4 القرآن - سور وآيات -5 القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-11-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7668393 بتاريخ 2024/01/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»